الدمعة الخرساء

لسليما الرياشي

سمعتُ عويل النائحاتِ عشيةً ... في الحيّ ، يبعث الأسى ويثيرُ
يبكين في جنح الظلام صبيةً ، ... أن البكاء على الشباب مريرُ
فتجهمت وتلفتت مرتاعةً ... كالظبي ايقن انه مأسورُ
وتحيرت في مقلتيها دمعةٌ ... خرساء ، لا تهمي وليس تغورُ
فكأنها بطلٌ تكنّفه العدى ... بسيوفهم ، وحسامه مكسورُ
وجمت فأمسى كلُّ شيء واجماً ... النور والاظلال والديجورُ
الكون اجمع داهلٌ لذهولها ... حتى كأنّ الارض ليس تدورُ
لا شيء مما حولنا وأمامنا ... حسنٌ لديها ، والجمال كثيرُ
سكت الغدير كأنما التحف الثرى ... وسها النسيم كأنه مذعورُ
وكأنما الفلك المنوّر بالقعُ ... والانجم الزهراء فيه قبورُ
كانت تمازحني وتضحك فاتهى ... دور المزاح ، فضحكها تفكيرُ
قالت وقد سلخ ابتسامتها الاسى ، ... صدق الذي قال — الحياة غرورُ
أكذا نموت وتنقضي احلامنا ... في لحظة والى التراب نصيرُ ؟
وتموج ديدان الثرى في اكبدٍ ... كانت تموج بها المنى وتمورُ
خيرٌ اذن منا الألى لم يولدوا ... ومن الانام جلامدٌ وصخورُ
ومن العيون نكاحلٌ ومراودٌ ... ومن الشفاه مساحق وذرورُ
ومن القلوب الخافقات صبابة ... قصبٌ ، لوقع الريح فيه صفيرُ

* * *

وتوقفتْ ، فشعرتُ بعد حديثها ... ان الوجود مشوّشٌ مبتورُ
الصيف ينفث حرّهُ من حولنا ... وانا احسُّ كأنني مقرورُ

ساقت الى قلبي الشكوك فنغّصت ليلي ، وليس مع الشكوك سرورُ
وخشيت ان يغدو مع الريب الهوى كالرسم لا عطرٌ وفيه زهورُ
وكدمية الخمّال حسن رائعٌ ملء العيون وليس ثمّ شعورُ
فاجبتها : لكن لديدان الثرى اجسامنا ؛ ان الجسوم قشورُ
لا تجزعي فالموت ليس يغيرنا فنحن اياب بعده ونشورُ
انّا سنبقى بعد ان يمضي الورى ويزول هذا العالم المنظورُ
فالحب نور خالدٌ متجدد لا ينطوي الاّ ليسطع نورُ
وبنو الهوى احلامهم ورؤاهم لا اعين ومراشف ونحورُ
فاذا طوتنا الارضُ عن ازهارها وخلا الدجى منا وفيه بدورُ
فسترجعين خميلة معطارة انا في ذراها بلبلٌ مسحورُ
يشدو لها ويطير في جنباتها فتهش اذ يشدو ، وحين يطيرُ

* * *

او جدولاً مترقرقاً مترنماً انا فيه موج ضاحك وخريرُ

* * *

او زهجين فراشةً خطّارة انا في جناحيها الضحى الموشورُ

* * *

او نسمة ، انا همسها وحفيفها ، ابداً تطوّف في الربى وتدورُ
تغشى الخمائل في الصباح بليلةً وتؤوب حين تؤوب وهي عبيرُ

* * *

او تلتقي عند الكثيب على رضىً وقناعةٍ ، صفصافة وغديرُ
تمتد فيه وفي ثراه عروقها ويسير تحت فروعها ويسيرُ
وينوص فيه خياشها فيلفه ويشف فهو المنطوي المنشورُ
يأوي اذا اشتدّ الهجير اليهما الناسكان : الظبي والعصفورُ

لها سكينتها ووارف ظلها والماء ان عطشا لديه وفيرُ
اعجوبتان — زبرجد متهدّلٌ نامٍ ، تدفق تحته البلّورُ
لا الصبح بينهما يحول ولا الدجى فكلاهما بكليهما مغمورُ
تتعاقب الايام وهي نضيرة مخضرة الاوراق ، وهو نميرُ
فالدهر اجمعه لديها غبطة والدهر اجمعه لديه حبورُ

* * *

فتبسمت وبدا الرضى في وجهها اذ راقها التمثيل والتصويرُ
عالجتها بالوشم فهي قريرةٌ ولكم افاد الموجع التحذيرُ
ثم افترقنا صاحكين الى غدٍ وانشب شمس فوقنا وتشيرُ
هي كالمسافر آب بعد مشقةٍ وأنا كأني قائد منصورُ

* * *

لكنني لما اويتُ لمضجعي خشن الفراش عليَّ وهو وثيرُ
واذا سراجي قد وهت وتلجلجت انفاسه فكأنهُ المصدورُ
وأجلتُ طرفي في الكتاب فلاح لي كالرسم مطموساً وفيه سطورُ
وشربت بنت الكرم احسب راحتي فيها فطاش الظنُّ والتقديرُ
فكأنني تلك وهت اعرامها والبحر يطغى حولها ويثورُ
سلب الفؤاد مروّاد والجفن الكرى، ثم عرا ؛ فكلاهما موتورُ
حامت على روحي الشكوك كأنها وكأنني فريسة وصقورُ
ولقد لجأت الى الرجاء فعقني اما الخيال فخائب مدحورُ
يا ليل اين النور ؟ اني تائهٌ سُرْ بنبتق. ام ليس عندك نورُ؟
« اكذا نموت وتنقضي احلامنا في لحظةٍ والى التراب نصيرُ »
« خير لذن منا الألى لم يولدوا ومن الانام جنادل وصخورُ »

[عن مجلة السمير]